الفصل الأول

عصر عبد الرحمن الكواكبي *

١ ـ الحالة السياسية

مرّت بالدولة الإسلامية عواصف كادت تذهب بها منذ نشأتها فقد دبّ فيها الخلاف الداخلي في القرون الإسلامية الأولى ، ثم ولدت فيها دويلات مزّقت شملها المجموع . وانصبّت عليها بعد ذلك ويلات أوربة حين غزتها من الغرب فاحتلت رقاعاً عزيزة منها ، وجاءتها زعازع المغول من الشرق فأحرقت الربوع ودمّرت الآثار ، ولكنها وقفت لذلك كله وقفة مذهلة مدهشة حافظت فيها على الدّين واللغة والقومية . فلما جاء الحكم العثماني وبسط عليها ظله أطاعت وسكنت في ظاهر الأمر ، حتى إذا تغلغل في كيانها ودخل في صميمها تخدّرت أعضاؤها زمناً غير قصير وأصبحت تعيش في واقعها شرقية مسلمة ولكن نار العروبة كانت تحت الرماد تعيش خلال قرون ، فلما دخلت في طور جديد واستيقظت على أنوار الغرب في الثقافة والحرية ، ودوّت في أسماعها هزة الثورات وتعاليم المساواة وأصوات الإخاء ، راحت تنتشي بعز العرب وكرامة القومية ، وتتغنّى بما لأمم أوربة من عيش جديد وحضارة جديدة ، وهبّ الكتّاب والمفكرون فيها ينقلون إلى أقطار العرب هذه الألوان ، ويبعثون فيهم روح اليقظة فتسري خفية إلى النفوس الكبيرة ، وتجوز الحدود والسدود على رغم العيون والرقباء فتستقر في الصدور الواسعة من أبناء العرب في مختلف عواصمهم ، عن سبيل أحرار الأتراك وأحرار الغربيين ، وساعدها سعي الممثلين السياسيين لأمم الغرب

* هذا العصر رسم خيوطه وخطوطه الكاتب الأديب الأستاذ عادل الغضبان حين ألف في نجيب الحداد ، لسلسلة نوابغ الفكر العربي ، رقم ٣ ، فقد عاش الحداد معاصراً للكواكبي (١٨٦٧ – ١٨٩٩) ، ولم يترك الغضبان زيادة لمستزيد ، لذلك نحيل إليه فيما أغفلنا من أمور .

كروسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وإنكلترا ودعايتهم الواسعة وعونهم المادىّ فراحت تثيرهم وتوقد فيهم نيران الحماسة وتبعث حبّ الحركة والانقلاب .

وازداد اتصال الأحرار العرب بالغرب وتوسّعت مؤسساته فى الشرق وكثر انتقال بعضهم إلى مصر ، وأقبل دعاة الحرية والنهضة من زعماء الفكر فى الشرق وخاصة فى مصر ، يصفون آلام الشعوب العربية تحت وطأة العثمانيين ، ويرسمون الأخطار ويصوّرون الأمانى والآمال .

وقام بعض أصحاب الصحف يفسحون فى المجال لهذه الصيحات والمقالات فأصبحت الثورة تغلى فى كثير من النفوس ، واستجاب لها الأحرار فى سورية ولبنان لما كانتا عليه من ظلم الأتراك العثمانيين وجور حكامهم واستخفافهم بالشعوب المحكومة فقد ركب الولاة مراكب الرشوة واللذّة والمعاصى ، وحكموا بالجواسيس والعيون ، وتسلطوا على أموال التجار والفقراء ، وظلموا القانون ، وخرقوا الدستور ، وتجاهلوا قيمة العرب فاخترعوا الألفاظ فى تحقيرهم وتهديدهم ، حتى شاع فى العرب أن الأمر صائر إلى قتل قوميتهم ، ومحو لغتهم ، وتشنيع تاريخهم ، وتلويث تراثهم ، وإفساد أخلاقهم ، والنيل من نبيّهم[1] . وأسرفوا فى سجنهم وتعذيب أحرارهم وإقفار شعوبهم حتى خُيِّل للعرب أنهم أصبحوا موضع الجباية ومورد الرزق يدرّون الأخلاف على الدولة لتنقل إلى العاصمة العثمانية ومن فيها من حكام وولاة ومتنفذين ، فاستجابت القلوب بسبب هذا كله إلى الناقدين وأصغت للمصلحين ، وراحت ترقب الخلاص وتنتظر الفرج على أيديهم ، وتتلقف آثارهم وتتبع مقالاتهم ، وترى فيهم موضع الأمل ومحط الرجاء ، وتعجب بشجاعتهم وجرأتهم وتضحياتهم ، فقد كان منهم فى كلّ قطر مشعل ينير ، وعلَم يخفق ، ففى الأفغان ظهر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧)

---

(١) فصل الأمر فى ذلك الشيخ كامل الغزى فى كتابه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » ٣/٣٧٤ وما بعدها . ورسم ما كان من أمر العثمانيين وولاتهم فى حلب الشهباء مدينة الكواكبى ، وكان معاصراً له .

وفى مصر محمد عبده (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥) وفى سورية كان عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ ــ ١٩٠٢) أحسوا بالحال التى آلت إليها الخلافة ، والوضع الذى انتهى إليه العالم الإسلامى ، ورأوا أن لا بدّ من رابطة سياسية تمسك بهذه الأمة العريقة وتُعيد إليها سمعتها فى الدنيا ومكانتها بين الأمم ولكنّ كلاًّ منهم نظر إلى العلاج والطريقة من زاويته الخاصة وثقافته الشخصية وتربيته ونشأته ، فكانت نظرياتٌ فى الخلافة الإسلامية جديرة بالتحليل والنظر والدرس [١] ، اشترك فيها الكواكبى بلسانه وبيانه فصاح صيحاته فى وجه العثمانيين الأتراك ، ودعا إلى رابطة للشعوب الإسلامية ، وقدر لها دستورها ونظامها .

٢ ــ الحالة الاجتماعية

تقلبت الأمة الإسلامية خلال حضارتها الطويلة على نظم الحياة المختلفة ، فأخذت بأساليب الأمم المحتلة فى كثير من جوانبها ، وتحلّت بألوان العيش الرافهة على العصور ، ولكنها عاشت فيما يبدو على طبقات اجتماعية متباينة : فيها السلطان والأمراء والوزراء والوجهاء وعامة الشعب . وظلّت كذلك حتى كان أواخر القرن التاسع عشر ، حين اشتدّ التباين بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح الأمر يدعو إلى النظر والتأمل والإصلاح ، وخاصة حين غلت المركزية وقامت الآستانة كمحجة المسلمين وموضع آمالهم ، وموطن الرئاسة والزعامة والعلم للدنيا الإسلامية ، فانتسب الناس إلى فئات مختلفة متباينة كذلك ، يرجون عندها

---

(١) عرض الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » إلى هذه النظريات وقلب فيها وجوه النقد والنظر ، مما يحسن الرجوع إليه فى دراسة الآراء السياسية لعصر الكواكبى ، وكذلك تجب مطالعة « الخلافة أو الإمامة العظمى » لرشيد رضا ، مصر ١٣٤١ هـ وترجمة المستشرق هانرى لاووست وتعليقاته على الكتاب ، دمشق ١٩٣٨ .

الخبر فى الحل والعقد ، من ولاة وزعماء ومتنفذين ورجال الدين . وطغت الفئة الأخيرة ومالت إلى استغلال مكانتها ونفوذها فكانت صوفية زائفة حيناً ، وكان أنصاف المتعلمين والمتعممين ، وكانت الزوايا والتكايا أحياناً. وأصبح التديّن تجارة وزعامة ووساطة . فولدت البدع والخرافات والخزعبلات ، وضلّ الناس فى دروب الجهل والعقيدة لا يجدون السبيل الحقّ والطريق السوىّ .

فلما هبّت رياح الغرب وعرف العقلاء حقيقة الأديان ، وعيش الغربيين وواقع الحريات ، مالوا إلى تقليد أوربة تقليداً أعمى ، فنزعوا إلى التفرنج والتفنّن فى اللباس والرياش والمأكل ، وفشا فساد الأخلاق ، وكثر الاختلاط وعمّت الرشوة والمحاباة ، واستهان الناس بالمبادئ فى سبيل الوصول إلى الأهداف الزائلة ، فضجّت الفئات الواعية والعقول السليمة والنفوس المثقفة وهى قليلة ، وهبّت تنادى بتساوى الطبقات ، وفرض العدالة الاجتماعية ، ومحو الفقر والحاجة ، والأخذ بالنفوس إلى أن تتسامى عن الذل والضراعة والرشوة والمحاباة والتملّق والكذب والرياء ، لعلها تصلح حال الرجل فى صناعته وزراعته ، وتبحث فى أرضه وملكيته ، معتمدة فى ذلك حيناً على نصوص الكتاب والسنة ، وأحياناً على كتب المصلحين من الغربيين مما تسرب إلى الشرق من بعض النوافذ. وقد أرادت أن تشرح الإسلام الصحيح وتعاليمه ، وأن تبيّن زيف الطرق والمذاهب المحدثة ونوع البدع والخرافات ، وأن تتحدث فى أمر المرأة وإصلاحها ورفع مستواها ، فالمرأة إنما هى ابنة ومربية وزوجة ، وشريكة ومشيرة ، وهى نصف الأمة ولا يصلح نصف الأمة الثا إلاّ بها .

ولكن الموضوع الذى كان يثير كبار العقلاء ويحرك الأدمغة الرفيعة هو جور الحكام العثمانيين ، واستئثارهم بالغنم ، ودفعهم الشعب المسكين إلى الغرم ، فنهض فى الأمة العربية زعماء ينادون بالإصلاح ويطالبون بنزع الاستبداد ومحو الاستعباد والرقّ ، ويطمحون إلى عيش أسمى وحياة أرقى مما كان يعيش عليها الشعب العربى فطالبوا أن تفتح المدارس للعلم ، إذ كان الشعب على جهل فاضح

لا تكاد كثرته تفهم أو تقرأ أو تكتب وإنما تسير فى مسالك الحياة كما تسيّرها الأهواء، وألحّ المصلحون على أن تكثر المستشفيات لتداوى المرضى والزّمْنَى[١] والمعلولين، وتوفّر لهم العلاج، وأن يقف أدعياء الدين عند حدود الدين الصحيح فلا يستغلون العامة ولا يستأثرون بأوقافهم فى سبيل رسوم لا تنفع ووعظ لا يرفع، وكلام لا يقع من الصدق. وطلبوا بعد ذلك كله أن ترقى الصنائع وأن يوفر الكساء والغطاء لهؤلاء المساكين الذين كانوا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، فى حين يملك الأغنياء الأرضين الواسعة الشاسعة إرثاً من غير حق، وتملكاً بغير سند، وكان فى طليعة هؤلاء الزعماء المصلحين[٢] عبد الرحمن الكواكبى.

٣ ـ الحالة الثقافية

كان الشرق العربى فى أواخر القرن التاسع عشر على حال لا تحمد من ضعف الثقافة وضآلة عدد المدارس، وضيق وسائل الطباعة والنشر، فقد كانت الأفواه مكممة، والصحف قليلة لا تنشر إلا ما يراد منها أن تنشر، ولا يطبع من الكتب إلا ما يخفّ خطره على المستبدّين من الحكام الولاة، فكانت كتب الفقه والأوراد والأدعية تروج وحدها فى أنصاف المتعلمين، ويشجّعها المتعممون، فلا يلمّ الناس بكتب الرياضيات والطبيعيات والفلسفة والحكمة والأخلاق، ولا يقرءون كتب الحقوق والواجبات؛ لأن ذلك يثير المشاكل النائمة ويحرك الأفكار الغافلة، ويخلق المتاعب، وينير العقول.

فلما قامت الإرساليات الأجنبية فى هذه الربوع حركت جوانب من البحث

---

(١) الزمنى: جمع زمين وهو المصاب بالزمانة أى العاهة.

(٢) ظهر فى هذا العصر كثير من الزعماء المصلحين تفرقوا فى البلاد الإسلامية، فكان مدحت باشا وخير الدين التونسى وعبد الله النديم وأحمد خان والأفغانى ومحمد عبده، مما تراه مفصلا فى كتاب «زعماء الإصلاح» لأحمد أمين، فهو جليل مفيد فى هذا الباب.

جديدة، ومسائل من الدرس كانت مجهولة، فلامست عقول المتحررين وأيقظت النفوس الكبيرة ، فنشط العقلاء إلى العكوف عليها ومدارستها ونقلها ، فنشأت فئة قليلة تقرأ فى دقة . وتفهم فى وعى جديد . وزادها ما نهضت به مصر على يد الأزهر وصحف المصريين فى مقالات جريئة وبحوث طريفة وقصائد قومية[1] تتعلق بالإنسان وكرامته، والمواطن وحقوقه ، والعربى وحريته ، وتسربت هذه الصفحات سرًا وخفية إلى الأيدى المرتعشة والقلوب الخائفة لأن السجن كان أقل عقاب لقراءة الآثار الخطيرة ، والنفى كان أقل جزاء لتملك هذه القنابل المحرقة . وقوّى ذلك ما كان من صلة الغرب بالشرق وطواف بعض العرب بعواصم الغرب، وما كان ينشره ويحمله إلى العرب قناصل أوربة سعياً فى الإثارة وتأجيجاً لنار الثورة — كما قلنا — .

ونشأت فى سورية ولبنان صحف تكتب فى موضوعات جديدة فكانت تعمّر قليلا ثم تنطفئ ، وكانت تنقل إلى العرب كتب الغربيين ومسرحياتهم وروايا تهم وأدبهم وأخلاقهم ، ثم صاحبها انتشار المدارس وتقدمها ، فدعت إلى الإصلاح والحرية . وكان أن صدرت فى حلب جريدة « الشهباء » حرّر فيها ميخائيل الصقال[2] والكواكبى ثم عطلت . وصدرت فيها كذلك جريدة « الاعتدال » بالتركية والعربية ولكن سراجها أطفئ كذلك فى مطلع حياتها ، فقد كانت كأختها حرّة الضمير تكتب فى حبّ الوطن وتنبّه على مواضع الخلل ، وكان يحررها

---

(١) ألف الأستاذ أنيس الخورى المقدسى بحوثاً نفيسة فى تصوير نزعات هذا العصر وانعكاسها فى الأدب وجمعها فى كتابه « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » وقد طبع فى جزءين ببيروت ١٩٥٢ ، يحسن الرجوع إليهما فى تفصيل الأمر والتوسع فى دراسة العصر .

(٢) أديب شاعر حلبى ابن العالم الشاعر أنطون الصقال ولد فى مالطة يوم كان أبوه نازلا فيها . اشتغل فى أول عهده بفن المحاماة ثم عاد إلى الاشتغال بالأدب فنزل مصر سنة ١٨٩٧ ونشر فيها مجلة « الأجيال » المصورة وكانت أول مجلة مصورة ظهرت فى العربية ثم رجع إلى حلب وعكف على التأليف، ثم عاد إلى مصر وقفل بعد ذلك عائداً إلى وطنه. له ديوان شعر وكتب فى الأدب والتاريخ، وقد توفى منذ سنوات عن شيخوخة صالحة (انظر ترجمته المفصلة فى كتاب « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » بقلم قسطاكى الحمصى) .

الكواكبي كذلك ويسعى فيها إلى جامعة إسلامية عربية قريبة مما سعى إليه المصلحون فى عصره .

وكان المرحوم مصطفى كامل فى مصر يعمل للوطن والحرية كذلك فيدوّى صوته فى مسرح زيزينا بالإسكندرية ، كما كان يدوّى صوت النائب الفرنسى فرانسو دلونكل والكاتبة الفرنسية ، مدام جوليات آدم ، إلى مقالات أحمد رضا بك صاحب مجلة «شورای ملّت[١] » التى كانت تصدر فى القاهرة مطالبة بالدستور والحرية ، وكتابات أحرار السوريين واللبنانيين فى مصر والبلاد الأمريكية ينفخون كذلك فى بوق الحرية والدستور نفخات امتلأت بها أجواء الشرق وآفاقه[٢] كالدكتور فارس نمر فى المقطم وسليم سركيس صاحب المشير[٣] والشيخ عبيد الله مبعوث آيدين وصاحب جريدة « العرب » التى كانت تصدر فى الآستانة ويحرر فيها معروف الرصافى .

وكانت هذه الأصوات تبلغ آذان المتحررين والمخلصين العاملين فى بعض الأقطار العربية فتثير فى النفوس الأمل وتبعث فى القلوب ريح الحرية والقومية ، ولكنها كانت قوية عظيمة فى القاهرة وخاصة بعد أن تحررت مصر من ظل العثمانيين ، فنهض إليها الأحرار من العرب ، ونزعوا فى اللجوء إلى حماها ، وكان منهم السيد عبد الرحمن الكواكبي الذى أصدر فيها مقالاته وبحوثه مدوّية ، ثم ظهرت فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » .

---

(١) إبراهيم سليم النجار ، مجلة «الحديث» ١٩٤٠ ، ٤/١٤ .

(٢) إبراهيم سليم النجار ، مجلة « الحديث » ١٩٥١ ، ١١٨/٢٥ .

(٣) يقول إبراهيم سليم النجار فى المصدر نفسه : غير أن الصحافة العربية الإسلامية كانت بعيدة عن مثل هذه النزعات ، فلا « المؤيد » ولا « اللواء » ولا « الأخبار » لصاحبها أمين الرافعى كانت تتعرض لمثل هذه المواضيع والأبحاث النارية » . ولكننا نرى أن « المؤيد » تصبح بعد قليل مسرحاً لقلم الكواكبى وموضوعاته الجريئة فى محاربة الاستبداد والاستعباد .